III- ظهور الصحافة في أوربا

وشكلت الرسائل الإخبارية المنسوخة، أو المخطوطة باليد، المظاهر الأولى للصحافة الأوروبية، خلال القرن الرابع عشر، في إيطاليا ثم في إنجلترا وألمانيا وكان يكتبها تجار الأخبار تلبية لرغبة بعض الشخصيات الغنية، ذات النفوذ الكبير، والمتعطشة إلى معرفة أهم أحداث العالم. وكان لهؤلاء التجار، مكاتب إخبارية جيدة التنظيم، ظلت تعمل لحسابهم، خلال القرن الخامس عشر، وجزء من القرن السادس عشر، وكان يوجد، في مدينة البندقية، مكاتب كثيرة من هذا النوع. وكذلك في سائر العواصم الأوروبية، وكان تاجر الأخبار يستأجر العبيد، الذين يعرفون الكتابة، أو يشتريهم، ويملي عليهم ما جمعه، من أخبار، ليدونوها، ويعدوها للبيع والتوزيع على المشتركين، وخاصة رسائل الأخبار العامة، التي كانت تختلف عن رسائل المعلومات الخاصة الموجهة لكبار رجال السياسة والاقتصاد.

1- الصحافة الفرنسية:

تعد فرنسا أول دولة أصدرت صحيفة رسمية في تاريخ الصحافة المكتوبة عندما قام Théophraste Renaudo بإصدار أوّل أسبوعية فرنسية (La Gazette de France) وضمت هذه الأخيرة في بداياتها 4 صفحات فقط على مقاس 23 سم وُزعَ منها ما يقارب 300 الى 800 نسخة أسبوعيا لتتطور بشكل فارق انطلاقا من سنة 1638 اذ ارتفع عدد سحبها الى 1200 نسخة و عدد صفحاتها الى 12 صفحة.

وكانت لا تنشر المقالات بل أخبارا من كل لون، الداخلية منها و الخارجية، بأسلوب مختصر و مقتضب على شاكلة الأخبار الموجزة التي تنشرها اليوميات في عصرنا الحالي، و حذت معظم دول أوروبا حذو فرنسا فأنشأت صحفا رسمية.

ولعل من أبرز العوامل التي ساهمت بشكل جليّ في ميلاد الصحافة الدوريّة آنذاك ظهور احتياجات جديدة لأنواع حديثة من المعلومات و التي يمكن القول بأنها جاءت نتيجة لمخرجات عصر النهضة و الاصلاح و الاكتشافات الضخمة في المجال الصناعي الذي عرفته فرنسا فضلا عن الصراعات الكبيرة التي كان جيشُ هذه الأخيرة طرفا فيها، هذا من جهة، من جهة أخرى كان لاختراع آلة الطباعة الحديثة على يد الألماني Johannes Gutenberg سنة 1438 النزر الوفير من الفضل في رواج هذه الصحافة فيما بعد والذي خلق فرصة الحصول على أكثر من نسخة للنص الواحد دون اعادة كتابتها يدويا، و أخيرا انشاء أماكن خاصة للبيع جعلت من القابلية تقديم و توصيل الصحيفة للقراء.

إلا أنه و في القرن الثامن عشر و في الوقت الذي تمتعت فيه الصحافة الانجليزية بحرية أقرها البرلمان ووافق عليها رؤساء الأحزاب كانت الهوة فسيحة بين الصحافة الانجليزية التي تخلصت من الرقابة منذ عام 1695 وبين صحافة القارة الأوروبية فبينما وصلت الأولى بعد نضال صعب الى تدعيم استقلالها و دعم حريتها بقيت الثانية في فرنسا على سبيل التحديد باستثناء النشرات الاخبارية المطبوعة (الغازينات) خاضعة لأهواء و نزوات الرقابة و الحُكام فعانت هذه الأخيرة من الحجر من الحجر السياسي الذي فرضه عليها النظام الملكي و كذا من الحجر التجاري الذي فرضه عليها احتكار بعض الصحف للمواد الصحفية على غرار احتكار Mercur de France للأنباء الأوروبية و الاجتماعية و صحيفة Gazette de France للأخبار السياسية، و Journal de Savane الأخبار العلمية.

وإذا كانت الصحافة الفرنسية لم تستطع أن تلعب الدور الأول في التغيير بسبب أنفة الفلاسفة و المفكرين من العمل فيها و احتقارهم لها إلا أنها كما يذهب Albert Pierre استطاعت أن تلعب دورا كبيرا في القضاء على عيوب العهد القديم في فرنسا خلال القرن الثامن عشر.

عرفت الصحافة الفرنسية مع بدايات القرن التاسع عشر في هذه الفترة نقطة تحول تاريخية نظرا لما أفرزته الثورة الفرنسية سنة 1789 م من نتائج ايجابية في جميع الميادين السياسية و الاجتماعية و الثقافية و التقنية فتوسعت دائرة عملائها و قراءها وأصبح التداول عليها كبيرا و عدد سحب صحفها ضخما، و يمكن تلخيص أهم العوامل التي اجتمعت مساهمة في تطور هذه الصحافة و توسع سوقها في النقاط التالية :

- تغير النظام السياسي و خلقُ ثقافة الانتخاب و ظهور المنتدبين كان من بين أهم العوامل التي رفعت من وتيرة الاهتمام بأخبار السياسة و المجتمع لدى الرأي العام في هذه الفترة فأصبح الفرنسيون يتوقون لمعرفة جديد البرامج و ما يحدث بشكل دوري في المحافل السياسية، الأمر الذي وفرته لهم عديد الدوريات الوطنية و المحلية.

- انخفاض أسعار بيع الصحيفة الواحدة نتيجة للتطور الباهر في مجال التصنيع و الطباعة بشكل خاص فبعدما كانت هذه الأخيرة من امتيازات النخبة الحاكمة فحسب أصبحت في متناول الفئات البرجوازية الأخرى و أبناء المدن الأمر الذي أثر على محتوياتها فوجدت الصحف التي زاد عددها و تلونت اتجاهاتها و تباينت أغراضها أن قراءها الجدد لا يلتمسون فيها غير الأخبار و لا يقبلون على مقالات الأدب و الفلسفة فحسب فكانت الصحيفة التي تنشر خبر غرق كلب نهر على سبيل المثال في نهر السين تتحدث عنها باريس أكثر مما تتحدث عن صحيفة شغلت صفحاتها بمقالات الأدباء و العلماء.

- استبدال ورق الشيفون النادر و المكلف بورق الخشب سنة 1811 و تزامن هذا مع ظهور الصحافة الميكانيكية في لندن و الذي ألهم الفرنسي Joly في باريس سنة 1845 م لاختراع " les presses à réaction " و التي استلهمت من مراحل تصنيع سابقتها بالإضافة الى تضمينها العديد من التحسينات و التعديلات مما ساهم في رفع سقف الانتاجية بحيث كانت هذه الآلات الخاصة بالصحف تستطيع نسخ من 7 ألاف الى 12 ألف نسخة في الساعة، و عُممت هذه الاخيرة فيما بعد في أغلب المطابع الفرنسية سنتي 1866 - 1867 من قبَل Derriey و Marinoni لتتطور أكثر بعدها و تضمن نسخ حتى 18 ألف نسخة في الساعة.

- تطور مجال المواصلات و النقل و الذي ساهم بشكل كبير في اتساع رقعة نشر الصحف، الأمر الذي خلق ثقافة الاشتراك والمداومة على اقتناء عناوين معينة لدى الفرنسيين في مختلف أرجاء البلاد.

-مع تراكم القاعدة التكنولوجية آنذاك في العالم لدرجة لم يعد هناك مشكلة تستعصى على الحل ظهر جهاز التلغراف هذه الوسيلة التي داعبت خيال الناس و حيرتهم لقرون عديدة و التي كان لها الاثر الأكبر في سيرورة تبادل المعلومات بين الصحف و مراسليها و وكالات الأنباء (سنة 1855 م جميع محافظات فرنسا كانت مرتبطة عن طريق التلغراف الكهربائي بباريس).

- تأسس وكالة " هـــافاس " الفرنسية للأنباء سنة 1835 م و التي أحست الصحف بأهميتها فاشتركت فيها و حاولت البعض الأخرى أن تستغني بنشاطها الخاص عن خدماتها فعجزت اذ تميزت وكالة هافاس بمنابع أخبارها العديدة التي كان يوافيها بها مراسلوها من لندن وبروكسل و روما و مدريد و فيينا و مدن ألمانيا المختلفة، و قد جعلتها مصادرها تلك سنة 1850 في القمة من حيث السرعة و الدقة وحسن اختيار الأخبار و توزيعها، الأمر الذي تعجز عن أدائه صحف فرنسا مجتمعة.

- ظهور الاعلان في صفحات الجرائد الفرنسية في حوالي سنة 1840 مما ساهم في انخفاض أسعار الاشتراكات و ولادة صحافة منخفضة السعر بامتياز.